بسم الله الرحمن الرحيم

الصَّلاة قرَّة عيون المحبِّين في هذه الدُّنيا لما فيها من مُناجاة مَن لا تَقَرُّ العُيون، ولا تطمئنُّ القُلوب، ولا تسكنُ النُّفوس إلَّا إليه، والتَّنعُّم بذكره والتَّذلُّل والخضوع له والقُرب منه، ولا سيما في حال السُّجود، وتلك الحال أقرب ما يكونُ العبد من ربِّه فيها، ومِن هذا قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**يا بلال! أرِحْنَا بالصَّلاةِ**»[1] فأعلمَ بذلكَ أنَّ راحتَه في الصَّلاة، كما أخبَر أنَّ قرَّة عينِه فيها؛ فأينَ هذا مِن قولِ القائلِ: نصلِّي ونستَريح من الصَّلاة؟!

فالمحبُّ راحتُه وقرَّةُ عينه في الصَّلاة، والغافلُ المُعرِض ليس له نصيبٌ مِن ذلكَ، بل الصَّلاة كبيرةٌ شاقَّةٌ عليه، إذا قامَ فيها كأنَّه على الجمر حتَّى يتخلَّصَ منها، وأحبُّ الصَّلاة إليه أعجلُها وأسرَعُها، فإنَّه ليس له قرَّة عين فيها، ولا لقلبه راحةٌ بها، والعبدُ إذا قرَّت عينُه بشيء واستراحَ قلبُه به، فأشَقُّ ما عليه مفارقتُه، والمتكلِّفُ الفارغ القَلب من الله والدَّار الآخرة المبتَلَى بمحبَّة الدُّنيا أشقُّ ما عليه الصَّلاة، وأكرَهُ ما إليه طولها مع تفرُّغِه وصحَّتِه وعدم اشتغالِه.

وممَّا ينبغي أن يُعلَم أنَّ الصَّلاة الَّتي تقرُّ بها العَين ويستَريح بها القَلب هي الَّتي تجمع ستَّةَ مشاهد:

.المشهد الأوَّل: الإخلاص: وهو أن يكونَ الحامل عليها والدَّاعي إليها رغبة العَبد في الله ومحبَّته له، وطلب مرضاته والقُرب منه، والتَّودُّد إليه وامتثال أمرِه، بحيث لا يكون الباعثُ له عليها حظًّا من حظوظ الدُّنيا ألبتَّةَ، بل يأتي بها ابتغاءَ وجه ربِّه الأعلى محبَّةً له، وخوفًا من عذابه، ورجاءً لمغفرته وثوابه.

(١) رواه أحمد (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٩٢).

.المشهد الثَّاني: مشهد الصِّدق والنُّصح: وهو أن يفرِّغَ قلبَه لله فيها ويستَفرغ جهدَه في إقباله فيها على الله، وجمع قلبِه عليها، وإيقاعِها على أحسنِ الوجوه وأكملِها ظاهرًا وباطنًا، فإنَّ الصَّلاة لها ظاهر وباطن.

فظاهرُها الأفعال المشاهدَة، والأقوال المسموعة، وباطنُها الخشوع والمراقبة، وتفريغ القلب لله والإقبال بكلِّيَّتِه على الله فيها بحيثُ لا يلتفتُ قلبُه عنه إلى غيره، فهذا بمنزلَة الرُّوح لها، والأفعال بمنزلة البَدن؛ فإذا خلَت من الرُّوح كانت كبَدَن لا روحَ فيه؛ أفلا يستحي العبدُ أن يواجهَ سيِّدَه بمثل ذلكَ، ولهذا تُلفُّ كما يُلَفُّ الثَّوبُ الخَلق ويُضرب بها وجهُ صاحبِها، وتقول: ضيَّعَك الله كما ضيَّعتَني.

والصَّلاةُ الَّتي كَمُل ظاهرُها وباطنُها تصعَد ولها نورٌ وبرهانٌ كنور الشَّمس حتَّى تُعرض على الله فيرضَاها ويقبَلها، وتقول: حفظَكَ الله كما حفظْتَني.

.المشهد الثَّالث: مشهد المتابعة والاقتداء: وهو أن يحرصَ كلَّ الحرص على الاقتداءِ في صلاتِه بالنَّبيِّ ﷺ، ويصلِّي كما كان يصلِّي، ويُعرض عمَّا أحدثَ النَّاس في الصَّلاة منَ الزِّيادة والنُّقصان والأوضاع الَّتي لم ينقل عن رسُول الله ﷺ شيءٌ منها، ولا عن أحدٍ من أصحابِه رضي الله عنهم.

.المشهد الرَّابع: مشهد الإحسان: وهو مشهد المُراقبة؛ وهو أن يعبُد اللهَ كأنَّه يراه، وهذا المشهد إنَّما ينشَأ من كمال الإيمانِ بالله وأسمائه وصفاتِه حتَّى كأنَّه يرى اللهَ ـ سبحانه ـ فوقَ سماواتِه مستَويًا على عرشِه، يتكلَّم بأمرِه ونهيِه، ويدبِّر أمرَ الخليقَة، فينزلُ الأمر من عندِه ويصعدُ إليه، وتُعرض أعمالُ العبادِ وأرواحُهم عند الموافاة عليه، فيشهد ذلكَ كلَّه بقلبِه ويشهدُ أسماءَه وصفاتِه، ويشهد قيُّومًا حيًّا سميعًا بصيرًا عزيزًا

حكيمًا آمرًا ناهيًا، يحبُّ ويبغضُ ويرضَى ويغضبُ، ويفعلُ ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهُو فوقَ عرشه لا يخفَى عليه شيء من أعمال العبادِ، ولا أقوالهم، ولا بواطنهم، بل يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصُّدور.

ومشهد الإحسان أصلُ أعمال القُلوب كلِّها، فإنَّه يُوجب الحياءَ والإجلالَ والتَّعظيم والخشيةَ والمحبَّةَ والإنابةَ والتَّوكُّل والخضُوع لله ـ سُبحانه ـ والذُّلَّ له، ويقطع الوسواسَ وحديثَ النَّفس، ويجمعُ القلبَ والهمَّ على الله.

فحظُّ العَبد من القُرب من الله على قَدر حظِّه من مقام الإحسَان، وبحَسْبه تتفاوتُ الصَّلاة حتَّى يكونَ بين صلاة الرَّجُلين منَ الفَضل كما بينَ السَّماء والأرض، وقيامُهما وركوعُهما وسجودُهما واحد.

.المشهد الخامس: مشهد المنَّة: وهو أن يشهَد أنَّ المنَّةَ لله ـ سبحانه ـ كونُه أقامَه في هذا المقام، وأهَّلَه له، ووفَّقَه لقيام قلبه وبدنه في خدمتِه، فلولا الله ـ سبحانه ـ لم يكُن شيء من ذلكَ، كما كان الصَّحابة يحدون بينَ يدَي النَّبيِّ ﷺ؛ فيقولون:

و الله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلَّينا

قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [سُورَةُ الحُجُرَاتِ]؛ فالله ـ سُبحانه ـ هو الَّذي جعَل المسلمَ مسلمًا، والمصلِّي مصلِّيًا، كما قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البَقَرَة: ١٢٨]، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

فالمنَّة لله وحدَه في أن جعَل عبدَه قائمًا بطاعتِه، وكان هذا

من أعظم نعمِه عليه؛ وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [سورة الحجرات].

وهذَا المشهَد من أعظم المشاهد، وأنفعِها للعَبد وكلَّما كانَ العبدُ أعظمَ توحيدًا كانَ حظُّه من هذَا المشهَد أتم.

وفيه منَ الفَوائد : أنَّه يحولُ بينَ القَلب وبينَ العُجب بالعَمل ورؤيتِه، فإنَّه إذا شَهد أنَّ اللهَ ـ سُبحانه ـ هُو المانُّ به، الموفِّق له، الهادي إليه، شغَله شُهودُ ذلكَ عن رؤيتِه والإعجابِ به، وأن يصُولَ به على النَّاس، فيُرفَع من قلبه فَلا يعجَب به، ومن لسانه فلا يمُنَّ به ولا يتكثَّر به، وهذا شأن العَمل المرفوع.

. **المشهَد السَّادس: مشهد التَّقصير**: وأنَّ العبدَ لو اجتَهد في القيام بالأمر غايةَ الاجتهاد، وبذلَ وسعَه فهُو مقَصِّرٌ، وحقُّ الله ـ سبحانه ـ عليه أعظَم، والَّذي ينبغي له أن يقابَلَ به من الطَّاعة والعُبوديَّة فوقَ ذلكَ بكثير، وأنَّ عظمتَه وجلالَه ـ سبحانه ـ يقتضي من العبوديَّة ما يليق بها.

وإذا شهد العبدُ من نفسه أنَّه لم يوفِّ ربَّه في عبوديَّته حقَّه ولا قريبًا من حقِّه علمَ تقصيرَه، ولم يسَعْه مع ذلكَ غيرَ الاستغفار والاعتذار مِن تقصيرِه وتفريطِه، وعدم القيام بما ينبغي له مِن حقِّه.

وملاكُ هذا الشَّأن أربعة أمور: نيةٌ صحيحةٌ، وقوةٌ عاليةٌ يقارنُهما رغبةٌ ورهبةٌ. فهذه الأربعة هي قواعد هذا الشَّأن، ومهما دخَل على العبد منَ النَّقص في إيمانه وأحوالِه وظاهرِه وباطنِه، فهو مِن نقصانِ هذه الأربَعَة أو نقصان بعضِها.

فليتأمَّل اللَّبيبُ هذه الأربعَة الأشياء، وليَجْعَلها سيرَه وسلوكَه ويبني عليها علومَه وأعمالَه وأقوالَه وأحوالَه، فما نتجَ مَن

نتج إلَّا منها، ولا تخلَّف مَن تخلَّفَ إلَّا مِن فَقْدها؛ والله أعلَم، والله المستَعان، وعليه التُّكلان، وإليه الرَّغبة، وهو المسؤول بأن يوفِّقَنا وسائرَ إخواننا من أهل السُّنَّة لتحقيقِها علما وعمَلًا إنَّه وليُّ ذلكَ، والمانُّ به، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل[٢].

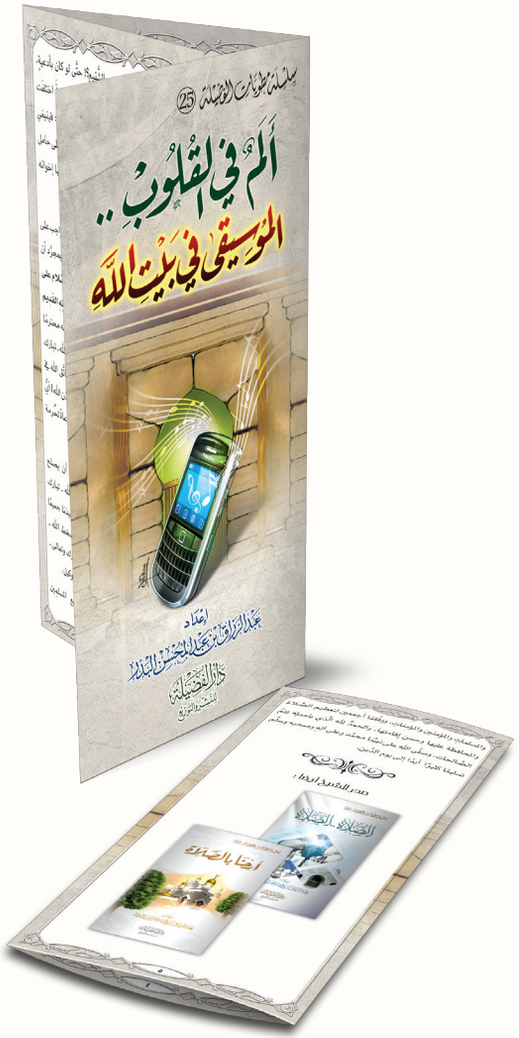

(٢) «رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه» (٥٩-٧١) باختصار.

سلسلة مطويات الفضيلة 23

أرِحْنا بالصَّلاة

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع